



- أقدار الله الكونية وشرائعه قائمة على الحكمة والتعليق، سواء علمناها أو لم نعلمها، فلا يقال: إن من الشرائع ما له علة، ومنها ما هو تعبد لا علة له.

ومحاسن الصيام وأسراره لا تكاد تحصى، لكن نقتصر على بعض العبارات لابن القيم في هذا الشأن، حيث يقول: «أما الصوم فناهيك به من عبادة تكف النafs عن شهواتها، وتخرجها عن شبه البهائم إلى شبه الملائكة المقربين.. فإذا كفت شهواتها لله ضيقـت مجريـات الشياطـين، وصارت قرـيبة من الله بترك عادتها وشهواتها، محبـة له، وإثـاراً لمرضاـته، وتقرـبا إلـيه»، إلى أن قال: «وأـي حـسن يـزيد عـلى حـسن هـذه الـعبـادـة الـتي تـكـسـر الشـهـوـة، وـتـقـمـع النـفـس، وـتـحـيـي الـقـلـب وـتـفـرـحـه، وـتـزـهـدـه في الدـنـيـا وـشـهـوـاتـها، وـتـرـغـبـ فيـما عـنـ اللـهـ!».

- إن حكمة الصيام جاءت منصوصاً عليها في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [آل عمران: 183].

«فالصيام يحقق التقوى، وهو العمل بطاعة الله إيماناً واحتساباً، فهو يصوم رمضان، على نور من الله، يرجو ثواب الله؛ فالالتقوى تجمع أصلين، أحدهما: أن الصيام باعثه الإيمان المحسن وليس العادة أو الهوى. والآخر: أن الصيام غايتها الاحتساب، فهو يصوم راجياً ثواب الله».

ولذا؛ يكثر افتران الإيمان بالاحتساب في غير حديث، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه».

- إن الصيام يحرّك الإخلاص لله وحده، وينمي حُسن القصد لله عز وجل، ويحقق التجدد له سبحانه، كما في الحديث

الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كل عمل ابن آدم له، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى: إلا الصوم فإنه لي وأتنا أجزي به، إن ترك شهوته وطعامه من أجلني».

ولذا قال غير واحد من أهل العلم: إن الصيام لا يقع فيه الرياء كما يقع في غيره، وخاص الصيام؛ لأنه ليس يظهر من ابن آدم بفعله، وإنما هو شيء في القلب، كما ورد في الأثر «ليس في الصيام رباء».

«قال القرطبي: لما كانت الأعمال يدخلها الرياء، والصوم لا يُطلع عليه بمجرد فعله إلا الله، فأضافه الله إلى نفسه، ولهذا قال في الحديث: «يدع شهوته من أجيلى». وقال ابن الجوزي: جميع العبادات تظهر بفعلها، وقل أن يسلم ما يظهر من شوب، بخلاف الصوم».

وبتحقيق الإخلاص تحصل السلامة من السوء والفحشاء، إذ الإخلاص لله تعالى يمنع تسلط الشيطان، قال تعالى: {كَذَلِكَ لَنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخَلَّصِينَ} [يوسف: 24]، فمن كان مخلصاً لله تعالى حق الإخلاص لم يزن، وإنما يزني لخلوه من ذلك.

- إن الإغراء في شهوات البطن والفروع، واعتيادها، وإلهها؛ يجعلها أسرأً وقيداً، فتنجذب الروح إلى ذلك الانحدار والهبوط، أما إذا صام العبد إيماناً واحتساباً، فإن روحه تسمو وتعلو، فالصوم يحرر الروح من رق المللوات وأسر المألوفات.

ولطالما استحوذ على فئام من الناس التفتّن في فضول المطعومات، والتکلف في تناول المأكولات والمشروبات، والمرواحة بين «المقبلات» و«المهضمات»! وفي مقابل شهوات الغي في البطن، كان سلفنا الصالح يتعمّلون بالفرح بفضل الله وبرحمته، ولذة الأنس بالله، فرحمه الله على تلك الأرواح، لم يبقَ منهم إلا الأشباح!

وهاك ما سطره ابن رجب - رحمه الله - في شأن القوم: و«نستغفر الله من الكلام فيما لسنا بأهل له».

«قيل للإمام أحمد ابن حنبل: يجد الرجل رقة من قلبه وهو يسبّ؟ قال: ما أرى.

ولهذا المعنى شرع الله الصيام..

واعلم أن عيش الجسد يفسد عيش الروح وينقصه، وأما عيش الروح فإنه يصلح عيش الجسد، وقد يغنه عن كثير مما يحتاج إليه من عيشه.

فمن وفى نفسه حظها من عيش جسده بالشهوات الحسية؛ كالطعام والشراب؛ فسد قلبه وقسماً، وجلب له ذلك الغفلة وكثرة النوم، فنقص حظ روحه وقلبه من طعام المناجاة وشراب المعرفة، فخسر خسراناً مبيناً.

فالصالحون كلهم قللوا من عيش الأجساد، وكثروا من عيش الأرواح، لكن منهم من قلل عيش بدنـه ليستوفيـه في الآخرة، وهذا تاجر، ومنهم من فعل ذلك خوفاً من الحساب عليه في الآخرة.

والمحققون فعلوا ذلك تفريغاً للنفس بما يشغل عن الله، لترتفع القلوب للعكوف على طاعته، وذكره وشكره، والأنس به والشوق إلى لقائه.

فما تفرغ أحد لطلب عيش الأجساد، وأعطي نفسه حظه من ذلك؛ إلا ونقص حظه من عيش الأرواح، وربما مات قلبه من غفلته عن الله، وإنعارضـه عنه».

إن البشرية اليوم تکابد سعار الشهوات، وتقاسي نكـد الانحطاط في الملذات، وتعاني شقاءً وضنكـاً؛ بسبب الولوغ وال الوقوع في

تلك الدرجات، والصيام جُنّة من تلك الآفات، وشفاء من جميع الغوايات، كما قال الشيخ محمد الخضر حسين: «أوليس في الصيام رياضة النفوس وتدريبها على احتمال المكاره، والصبر عن الشهوات، حتى لا تكون أسيرة في ملاذها! وفي النفوس التي اعتادت الصبر بما تشتهي - وهو حاضر - لديها قوة وجلادة لا تجدها في النفوس التي لا تكف عن المشتهيات إلا عند فقدانها، فالصيام بحق يشفى النفوس من علة الانحطاط في الشهوات كلما عرضت».

- وفي الصيام **جهاد للنفس على ترك العوائد والمألفات**، فهو يترك طعامه وشرابه وشهوته لأجل الله وحده، وجهاد النفس هو الأصل لكل جهاد.

والجهاد من لوازم محبة الله تعالى، والله سبحانه هو المعبد المألوه المحبوب المقصود، وهذه هي الحنيفة ملة إبراهيم عليه السلام، فمحبة الله أعظم الواجبات، وأصل كل الأعمال.

ثم إن الصيام إمساكٌ عن الشهوات، والغيُّ اتباع الشهوات، وأصل ذلك الغيُّ هو الحبُّ لغير الله، فتحمله محبة الشهوات على تقديمها على محبة الله، فتضيق محبته لله عز وجل، وربما أصرَّ على ذلك فسلب الإيمان بالكلية، فصار كافراً منافقاً،عكس الصائم؛ فإن محبة الله في قلبه وتضياعه كلما ارتقى في مقامات الصيام وأحواله.

كما أن محبة الصائم لله لا تنفك عن رجائه عز وجل، والخوف منه سبحانه؛ إذ كل محبٌ راجٍ خائف، وكل محبة مصحوبة بالخوف والرجاء ضرورة، ورجاء رحمة الله وقبول صيامه وقيامه يستلزم السعي والجد في شهر الرحمات والنفحات حسب الوسع والإمكان، إذ لا يصلح ولا يصح الرجاء إلا بالعمل، وإلا كان مجرد أمانٍ عاجز مفرط.

إن الصيام يرسّخ الإيمان باليوم الآخر ويقويه، ويربط الصائم بأحوال الآخرة وهمومها، ففي روايات الحديث الصحيح «الصيام جُنّة»، جاءت رواية عن سعيد بن منصور «جنة من النار»، ولأحمد «جنة وحسن حسين من النار»، والإيمان بالآخرة يفتح باب الرجاء والخوف، والصائم يحقق الرجاء، فإن عبادة الرجاء تحت وتحدو القلوب على السير إلى الله والدار الآخرة، ونفوس الصائمين تنشط وتتسارع إلى الخيرات وتسابق إلى القربات كما هو مشاهد ومجرّب.

كما أن الصوم يقوى الخوف من الله، فالصائم يخاف من تقصيره وتغريبه وعدم قبول عمله، فهناك تلازم بين مجانية الشهوات والخوف من الله تعالى؛ ولذا قال بعض السلف: إذا سكن الخوف أحرق مواضع الشهوات منها.. فاللهم أعنَا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

المصادر:

مجلة البيان